

بلاغة الغموض في شعر المتنبي

قراءة في كتاب (الفتح على أبي الفتح)

لابن فورجة
(ت بعد ٤٥٥هـ)

♦ م. د موفق مجيد ليلو*

● المقدمة:

المتنبي شاعرٌ كبيرٌ لا يختص بعصر، نال منزلة رفيعة بين الشعراء، فملأ الدنيا وشغل الناس، وحظي شعره بما لم يحظَ به غيره من الشرح والدراسة والتأويل. وكان فاتحة تلك الدراسات، ما كتبه أبو الفتح ابن جني، فله القدر المعلى في هذا المجال، ويعود إليه الفضل في فتح باب الدراسة والجدل حول شعر أبي الطيب. ومن بين تلك الكتب التي تصدّت للردّ على أبي الفتح كتاب ابن فورجة الموسوم (الفتح على أبي الفتح)، وهو من الأسفار القيمة التي بحثت في شرح مشكلات أبي الطيب، ويكفي مؤلفه فخراً، أنه اعتمد على الذوق الأدبي، ولم ينقل عن غيره إلا ما نقله عن أستاذه أبي العلاء المعري، بينما كثر النقل عن كتابه بتلمييح أو تصريح، فكان الواحد من معاصري ابن فورجة ينقل عنه ويثني على كتابيه (التجني والفتح) في النقد اللغوي. هذا الكتاب وأهميته، كان محلاً لهذه القراءة، فتناول البحث تعريفاً بالشارح ومنهجه في معالجة المشكلات وأهم آرائه النقدية، وأحكامه التي قد يستغربها القارئ من هذا الناقد الحذق العليم بسبر أغوار المعاني وخفاياها. ثم قدّم البحث دراسة لاستراتيجيات الغموض وأسبابه في شعر المتنبي بنظر الشارح ابن فورجة، فعمد إلى اختيار الأبيات وتصنيفها على وفق تقسيم المؤلف لأسباب الغموض، من عود الضمير وتقديم وتأخير ومجاز، مع عرض لأبيات أبي الطيب ببعض الشرح والتحليل، ثم ختم البحث بخاتمة تضمنت أهم ما توصل إليه، مع الحرص قدر الإمكان على تجنب الإطالة، وبذل الجهد ليكون موجزاً وميسراً.

* المديرية العامة لتربية ميسان.

ولست أدعي أنني قد جئت بما لم تستطعه الأوائل، وإنما حاولت جاهداً أن أجمع شتات ما توافر عليه الكتاب من مواطن الغموض مؤيداً بعضها ومعارضاً بعضها الآخر، ومن الله أستمد العون والتوفيق، وقد قيل قديماً:
على المرء أن يسعى بمقدار جهده
وليس عليه أن يكون موفقاً

المبحث الأول

ابن فورجة ومنهجه في شرح المشكلات ● حياة ابن فورجة (ت بعد ٤٥٥هـ)

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن محمود بن فورجة البروجردى، أديب ونحوي فاضل ومصنف، ولد في بروجرد بالقرب من أصفهان في ذي الحجة سنة (٣٣٠هـ - ٩٤١م) عاش غالباً في الري حيث تتلمذ له البخارزي (٤٦٧هـ)، وقعت وفاته في تاريخ غير معروف، وقيل بعد (٤٥٥هـ)، غير أن بلاشير في ديوان المتنبي يخطئ هذا القول وينسبه إلى صاحب فوات الوفيات^(١). ومن شعره^(٢):

أيها القاتلي بعينيه رفقا

إنما يستحق ذا من قلاكا

أكثر اللاثمون فيك عتابي

أنا واللاثمون فيك فداكا

إن لي غيرة عليك من أسمى

إنه دائماً يقبل فاكاً

قابل أبا العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) في بغداد سنة (٤٠٠هـ)، وتلمذ على يديه، وكان ذا مكانة عالية ومقام سام لديه، ويروى أن أبا العلاء أجاب ابن فورجة في قصيدة عامرة بالثناء عليه أولها:

الاقامت تجاذبني عناني

وتسألني بعرضتها مقبلاً

ويقول في آخرها^(٣):

ولو لم ألق غيرك في اغترابي
لكان لقاؤك الحظ الجميلاً

وقد أفاد من أراء أبي العلاء وتوجيهاته في دراساته عامة، وفي شرح أبي الطيب خاصة. وقرأ ديوان المتنبي بالعراق على جملة من العلماء والرواة، وحصل على نسخ كثيرة مكنته من تحقيق هذا الديوان، فضلاً عن اطلاعه على الفسرين الكبير والصغير لابن جني والوساطة للجرجاني ورسالتي الحاتمي والصاحب بن عباد. وكان يقول: «لقد قرأت هذا الديوان تصحيحاً ورواية على علماء عدة ورواة ذات كثرة»^(٤).

ويبدو أن ابن فورجة ألف كتابين هما: (التجني على ابن جني) و(الفتح على أبي الفتح)، ولم يذكر أحد غير هذين الكتابين، على الرغم من أن التجني لم يُعثر عليه. وكان هذان الكتابان رداً على الفسر الكبير، مفسراً فيهما أبياتاً أشكلت على ابن جني، أو أهملها أو أخطأ تفسيرها وصوب بعض شروحه، محاولاً الزيادة عليه من دون أن ينقص حقه. «وكان يميل أحياناً إلى الدفاع عن أبي الطيب، وعمدته إلى ذلك - أحياناً - الاحتكام إلى الروايات الصحيحة مثلما يعتمد في الأكثر على الذوق»^(٥). ولكن حماسه هذه لم تجعله يغفل عن بعض سيئات المتنبي أو يعتذر عنها، فهو يقول عن إحدى القصائد: «وهذه القصيدة من الشعر الرذل الذي لا ينتفع به ولا بتفسيره»^(٦).

وكانت إحاطته بديوان المتنبي ورواياته، ساعدته على توضيح أمور لم ينتبه إليها غيره وبصرته بمداليل الكلم، وعميق المعاني، وما انطوى عليه شعر أبي الطيب، مما يغيب عن كثير من الأدباء، وقد اعتمده الواحدي مصدراً في شرحه وكان معاصراً له.

(٤) الفتح على أبي الفتح: ص ٨٧.

(٥) تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من ٢ إلى

٨٥: د. احسان عباس: ص ٣٩٤.

(٦) الفتح على أبي الفتح: ص ١٧٥.

(١) الفتح على أبي الفتح: ص ١٤.

(٢) الفتح على أبي الفتح: ص ١١٣.

(٣) الفتح على أبي الفتح: ص ١٤ نقلاً عن شرح التنوير

على سقط الزند: ج ٢/ ص ١١.

وأما تسميته (فَوْرَجَة) فهي كلمة فارسية من مقطعين (فَوْر) وتعني الولد الصغير (جَة) وهي أداة تصغير، وعليه فيكون المعنى (الابن الصغير)^(٧).

● منهجه في شرح المشكلات

قبل التعرض إلى أسباب غموض الشعر لدى ابن فورجة، لابد لنا أن نشير إلى منهج ابن فورجة في شرحه لمشكلات أبي الطيب في كتابه (الفتح على أبي الفتح)، ويمكن إيجازها بنقاط:

- ١- ابتداء كتابة بحرف الهمزة وانتهى بالياء؛ لأنه ردٌّ على ابن جني في (فسره)، فمن الطبيعي أن يكون الرد بالأسلوب والطريقة نفسيهما.
- ٢- لم يقتبس لأيٍّ من شواهد ابن جني أو غيره، بينما اقتبس الواحد من ابن فورجة، وأعتمد عليه بوصفه مصدراً من مصادره، وكان معاصراً لابن فورجة.

- ٣- لم يكتف الشارح بالرد على ابن جني، وإنما كان يرد على القاضي الجرجاني (٣٦٢هـ) والصاحب بن عباد (٣٨٥هـ) والحاتمي (٣٨٨هـ)، ويكون عنيفاً أحياناً، وبخاصة مع صاحب، مع ما عرف عن ابن فورجة من عفة القلم وهدوء الطبع، وإن كان في بعض الأحيان يخرج عن طوره، إلا أنه لا يبخس حق غيره، بل يقول كلمته في تواضع وأدب، والظاهر أن تناول ابن عباد على المتنبي بغير حق هو الذي أخرجه عن سيرته^(٨)، لما عرف بينهما من عدا على ما ذكرته كتب الأدب والتاريخ.

- ٤- كان لا يثق برواية ابن جني وينهمه أحياناً بالزيادة وسوء الفهم - مع احترامه له - ويقول عنه في إحدى المرات: «وأنا أحلف بالله إن كان أبو الطيب قد سئل عن هذا البيت فأجاب بهذا الجواب الذي حكاه ابن جني، وأن كان إلا مزيداً مبطلاً فيما يدعيه»^(٩). ولعل ذلك يعود إلى أن ابن جني من

أهل اللغة لا الأدب، وكتبه تشهد بذلك، فهو مؤرخ للأدب وليس أديباً، وليس هذا مما يعاب عليه، بل يكفيه أن تكون له الريادة في شرح ديوان أبي الطيب، فكان فاتحة الشروح لشعر المتنبي، وهو أول من سلط عليه الأضواء.

- ٥- تقسيمه لأسباب الغموض في الشعر إلى ثلاثة أقسام، ذكر اثنين منها وسقط الثالث من المخطوطة، وكان يعطي النماذج لكل قسم.
- ٦- لم يكن كل ما عرضه ابن فورجة من المستبهم الغامض، بل كان أحياناً يذكر أبياتاً واضحة ويشير إلى ذلك - غير أن المناسبة - كالرد على ناقد الشعر أو القراءات المتعددة - تدعوه لذلك.
- ٧- انتبه ابن فورجة إلى أمور لم يسبقه إليها غيره، وذلك لإحاطته الواسعة بديوان أبي الطيب وكثرة قراءته على العلماء والرواة - كما أشار هو إلى ذلك - فمن ذلك مثلاً قوله: «إلا أن له عادة في قطع الكلام الأول قبل استيفاء الفائدة، وهو كثير في كلامهم... وقد استقرت شعره كله، فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به، فإذا ورد ضمير ذم رده إلى الكلام الأول تفادياً أن يخاطب به مواجهها، أو يرده إلى نفسه مخبراً...»^(١٠) ومن ذلك أيضاً قول أبي الطيب^(١١):
أرانب غير أنهم ملوك

مفتحة عيونهم نيام

قال: «المعهد في مثل هذا يقال: هم ملوك إلا أنهم في صور الأرناب، فتزايد وعكس الكلام مبالغة، فقال أرانب غير أنهم ملوك... فجعل الأرناب حقيقة لهم، والملوك مستعار منهم، وهذه عادة منه يفارق فيها أكثر الشعراء...»^(١٢).

- ٨ - كان يروي عن أبي العلاء فيما استغلق عليه - بل يرجح روايته للبيت - على الروايات الأخرى - وينقل رأي أستاذه بكل أمانة.
- ٩ - كان يتجنب التفصيلات اللغوية التي خاض

(١٠) الفتح على أبي الفتح: ص ١٢٥.

(١١) ديوان المتنبي: ص ٣٥١.

(١٢) الفتح على أبي الفتح: ص ٣٠٥.

(٧) الفتح على أبي الفتح: ص ١٢.

(٨) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٢.

(٩) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٤.

فيها ابن جنبي كالإطالة في شرح بعض الكلمات، وكثرة الشواهد لأمر معين، فكان يفسر الألفاظ التي يرى أنها غير واضحة أو تكون سبباً في استغلاق المعنى. وكان يستشهد أحياناً بآيات من القرآن تعضيداً لاستعمال لفظي، ويحاول الابتعاد عن التقديرات والتأويلات الاعرابية التي وقع فيها ابن جنبي .

١٠- التزامه بسنة الشراح في تفسيره الأبيات بعضها ببعض، فكان يفسر شعر المتنبي بعضه ببعض، وأحياناً في القصيدة الواحدة، فالألفاظ متنوعة والمعنى واحد، وهذا كثير في شعر أبي الطيب^(١٣).

● آراؤه النقدية

تضمن كتاب الفتح على أبي الفتح، جملة من الآراء النقدية التي ذيل بها المصنف شرحه للأبيات، مما يدل على دقته في تحري المعاني اللطيفة، وسر أغوار النص للوصول إلى مكنوناته، غير أننا نراه- أحياناً- يدافع عن بعض الأبيات بشيء من التعصب والإعجاب الشديد بأبي الطيب، غير أن ذلك «لا يجعله يغفل عن بعض سيئات المتنبي أو يعتذر عنها»^(١٤)، كما يرى د. إحسان عباس، ومن غريب ما رأيناه في كتابه من آرائه النقدية قوله عن بيتي أبي الطيب^(١٥):

وأنت أبو الهيجا ابن حمدان يابنه

وتشابه مولود كريمٍ ووالد

وحمدان حمدونٌ وحمدان حارثٌ

وحارث لقمانٌ ولقمان راشدٌ

فقال عنهما: «هذا المعنى من أحسن معاني القصيدة، والبيتان من خيار أبياتها، وما أجد من الشعراء قصيدة على هذا الوزن إلا وهذه

أحسن منها وأجود»^(١٦). ثم يذكر رأي صاحب واستهزاءه، ولسنا ندرك ما الذي استلطفه هذا الناقد اللودعي والأديب الحذق من هذين البيتين، فالفكرة موجزة لا تستحق هذه الإطالة وذكر (سلسلة السند) بأكملها. وربما لو أعانته القافية لأرعى العنان لبقية الأجداد.

ومما عابه على المتنبي قصيدته التي يقول فيها^(١٧):

ترفع ثوبها الأرداف عنها

فيبقى من وشاحيها شموعا

وإذا ماست رأيت لها ارتجاجا

له لولا سواعدها نزوعا

فقال عنها: «هذه القصيدة كلها في الشعر الرذل، الذي لا ينتفع به ولا بتفسيره»^(١٨) كما عاب عليه قوله^(١٩):

ومن سرّ أهل الأرض ثم بكى

أسى بكى بعيون سرّها وقلوب

فقال: «وقد قصر أبو الطيب في صنعة هذا البيت،

ذلك أنه جعل أهل الأرض فعمّ بهذا القول، ثم قال:

بكى بعيون (فنگر، وخصّ) لو قال:

بكى بالعيون التي سرّها والقلوب لكان أجود لتكون عيون أهل الأرض كلها وقلوبهم مساعده على البكاء، وكان أظهر للمعنى إلا أن الوزن لم يساعده، ولو قال من سرّ قوماً لكان قد استوفى المعنى ولم يختل اللفظ»^(٢٠).

وابن فورجة- وأن كان قد ذكر بعض الأبيات التي قصر فيها أبو الطيب- إلا أنها قليلة قياساً بما استعذبه من شعره واستلطفه، فمن جميل صنعة أبي الطيب قوله:

كأن رقاب الناس قالت لسيفه:

عدوك قيسي وأنت يمانى

فقال عنه: «هذا من أفراد أبيات أبي الطيب، بل

(١٦) الفتح على أبي الفتح: ص ١٠٠.

(١٧) ديوان المتنبي: ص ٢٠٣.

(١٨) الفتح على أبي الفتح: ص ١٧٥.

(١٩) ديوان المتنبي (العكبري): ج ٢/ ص ٢٥١.

(٢٠) الفتح على أبي الفتح: ص ٧٣.

(١٣) الفتح على أبي الفتح: ينظر الصفحات: ٨٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٨، ١٨٧، ٢١٣، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٦١، ٢٩٢، ٢٩٤.

(١٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: ص ٣٩٤.

(١٥) ديوان المتنبي: ص ٩٨.

من أجود جیده، وذلك أن شبيباً الخارجي عربي من بعض بطون قيس عيلان، وبينها وبين اليمن عداوة ما قد شهر، وقد جرت نسبة السيوف إلى اليمن، ثم أن شبيباً قُتل، ف يريد أنه قتل بسيف نفسه ولم يقتله كافور، ف يريد كأن الرقاب لما حل بها من عظيم ضربه لها أرادت التغريب بينه وبين سيفه: أنت يماني ورفيقك قيسي، فهلاً قتله، فسمع منها ما قالت فقتلته طالبة ترة نفسها وتيره اليمن في قيس عيلان، ... فانظر ما أحسن ما عبّر عن قتله على يد كافور، وهذه القصيدة من أولها إلى آخرها هجو (لكافور) ومدح لشبيب ومعرضها مدح كافور، وذم شبيب، فتأمل فالصنعة فيها عجيبة جداً»^(٢١).

ومن آرائه الأخرى قوله بعد شرحه لبيت المتنبي:
كأن نجومه حلي عليه

وقد حذيت قوائمه الجبوبا

«شبه النجوم بالحلي على الليل وجعل الأرض حذاء الليل، ويجوز أن يعني طول الليل، فكأنه شبه الليل بفرس أدهم له قوائم منعلة بالأرض... ولقائل يقول: هذه دعوى لا حجة عليها- حيث كأنه نظر إلى بيت امرئ القيس:

كأن الثريا علقت في مصامها

بأمراس كتان إلى صم جندل

فلعمري إن هذا لكما تقول، إلا أن الشعر يُحمل معناه على أحسن ما يقدر عليه تحقيقاً أو مجازاً»^(٢٢).

ولعل من أهم آرائه النقدية ما قدمه في بداية شرحه، من خلال تقسيمه اسباب الغموض في الشعر على ثلاثة أقسام، وسنشير إلى ذلك بالتفصيل. وهو يرى أن «الصنعة تختص من الشعر باللفظ، ووجه استعماله، لا باختراع المعاني»^(٢٣)، وذلك في مقام رده على شرح ابن جني لبيت المتنبي:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ

بباحث، والنجل بعض من نجله (م)

«قال أبو الفتح: أنا فوق أبي من يبحث عني، إلا أن صنعة الشعر قادت إلى هذا النظم، وليس بضرورة، كما قال:
قالت: من أنت على خير، فقلت لها: أنا الذي أنت من أعدائه زعموا فأتى بهذا النظم» انتهى كلام ابن جني.

يقول ابن فورجة واصفاً قوله: «وهذا كلام من لا يعرف صنعة الشعر، وأي صنعة في هذا البيت غير ابداع المعنى، والصنعة تختص من الشعر باللفظ ووجه استعماله لا باختراع المعاني... وليس نظم الشعر فقط احوجه إلى هذا القول، بل الشعراء المعروف بالتغالط»^(٢٤).

ومن حسن الصنعة التي أشار إليها ابن فورجة البيت^(٢٥):

لو استطعت ركبت الناس كلهم

إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

فقال عنه: «إلى أنه بيت حسن الصنعة والمعنى، يعني أن الناس كلهم كالبعرا في عدم العقول، فهم يصلحون للركوب». ثم ينتصر لأبي الطيب على صاحب الذي عاب البيت قائلاً: أراد أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا، فجاء بأخزي الخزايا... فهل في الأرض أسقط من هذا التسحب ولا أوضح من هذا التبسط...»^(٢٦)

وهذه من عادة الشعراء أن يرفعوا المدوح فوق الناس، وإلا فأنهم في حرج من جميع ما ينطقون، فهل يعقل المتنبي أن يجعل نفسه مع المركوبين؟ ثم أن هذه سنة الشعراء قبله، فلم يعاب ذلك عليه فقط، وهو من المجاز والتأويل، وقد أصطفى الله مريم على نساء العالمين. فهل يعقل أنه اصطفاها على فاطمة (ع) وهي بعدها، وحواء وهي قبلها؟ ومن ملاحظه الأخرى على شعر أبي الطيب قوله: «يتجنب في شعره تكرير اللفظة الواحدة في حشو البيت، فضلاً عن القافية، فلا تكاد تجد له لفظة

(٢٤) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٢٥) الفتح على أبي الفتح: ص ٣٣٤.

(٢٦) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٣٣٥.

(٢١) الفتح على أبي الفتح: ص ٣٤٠.

(٢٢) الفتح على أبي الفتح: ص ٥٩.

(٢٣) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٦٦-٢٦٧.

المبحث الثاني

أسباب الغموض في الشعر عند ابن فورجة

هناك متكأً نقديٌّ عند ابن فورجة، فهو يرى «أنَّ ما يُستبهم معانيه على الأذهان من الشعر ثلاثة أُضرب، في كلها يضرب هذا الديوان بسهم، ويأخذ منه بقسم»^(٣٣)، أي أنَّ أسباب الغموض في الشعر تعود الى ثلاثة أمور:

الأول: هو الذي صدَّك جهل غريبه عن تصوُّر غرضه.

ثم يذكر ثلاثة أقسام، يذكر القسم الأول فقط، وسقط القسمان الباقيان من المخطوطة، وهذا القسم موجود في شعر أبي الطيب.

الثاني: ولم يذكر أيضاً؛ لأنَّه سقط من المخطوطة. **الثالث:** «ولا أقسام له، وهو ما عماء اعرابه لمجاز فيه، أو حذف من اللفظ، أو تقديم أو تأخير سوَّغه الاعراب»^(٣٤). وهذا الضرب موجود في شعر أبي الطيب أيضاً ومنه قوله:

حملت إليه من لساني حديقةً

سقاها الحجي سقي الرياض السحائب
ففرَّق بين المضاف والمضاف إليه بلفظة (الرياض)، ويريد: سقي السحاب الرياض، وهذا كثيرٌ في شعر العرب^(٣٥).

والذي يعنينا من هذه الدراسة، القسم الثالث وهو ما عماء اعرابه لمجاز فيه أو حذف أو تقديم وتأخير سوَّغه الأعراب؛ لأنَّه يدخل ضمن نطاق النقد اللغوي والصياغات الملتبسة، التي تؤدي إلى تعدد القراءات للبيت الشعري من جانب، وغموضه من جانب آخر، محاولاً تصنيف الأبيات على وفق هذه التصنيفات التي أشار إليها ابن فورجة. وسنحاول أن نعرض لكل سبب بشيء من التفصيل، على وفق المنطلق النقدي الذي ذكره ابن فورجة في كتاب (الفتح على أبي الفتح) مع ذكر لبعض الأبيات التي تتضمن غموضاً بالدراسة والتحليل.

(٣٣) الفتح على أبي الفتح: ص ٣٥.

(٣٤) الفتح على أبي الفتح: ص ٤١.

(٣٥) الفتح على أبي الفتح: ص ٤٣.

مكررة في بيتين من قصيدة واحدة إلا القليل النزر، بل لا يتجنب مثل ذلك الطائيان... فدواوين جميع الفحول مملوءة من التكرير ما خلا هذا الديوان الواحد فإنَّ التكرير عنده مستشنع وفي دينه مسترذل»^(٣٧).

ويبدو أنَّ ما ذكره ابن فورجة ليس على إطلاقه، فقد استثنى القليل النزر، ونحن نجد في بعض أبيات المتنبي تكراراً لبعض الألفاظ، ربما ألجأته الضرورة الى ذلك، وقد يكون مراعاة للصنعة، كما في قوله:

إنَّ المعيد لنا المنامُ خياله

كانت إعادته خيالَ خياله^(٣٨)

وفي مديحه لسيف الدولة قائلاً:

وحمداً حمدونٌ وحمداً حارثٌ

وحارثٌ لقمانٌ ولقمانٌ راشدٌ^(٣٩)

وغير ذلك كثير، بل أحياناً يعيد الشطر بأكمله مع تغيير كلمة أو كلمتين، ومن ذلك قوله:

فحبُّ الجبان النفس أوردته التقى

وحبُّ الشجاع النفس أوردته الحربا^(٤٠)

وقوله:

وقد أراني الشباب الروح في بدني

وقد اراني المشيب الروح في بدني^(٤١)

ومن ذلك أيضاً:

فلا مجدٍ في الدنيا لمن قلَّ ماله

ولا مالٍ في الدنيا بمن قلَّ مجده^(٤٢)

وهذا يرد في شعر المتنبي بشكل ملحوظ، فهل يمكن أن نعهده قليلاً من القليل النزر؟ إلا أن ابن فورجة ربما قصد إعادة الكلمة نفسها وبالمعنى نفسه، ولا سيما في القافية.

(٣٧) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٨٥.

(٣٨) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٢٠٦.

(٣٩) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ١٠٠.

(٤٠) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٨١.

(٤١) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٢٠٧.

(٤٢) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٢٠٧.

● مرجعية الضمير

مسألة عود الضمير من الأسباب التي تؤدي إلى تعقيد الصياغة وصعوبة فهم المعنى، وهذا الأمر قد يجعل بعض الصياغات غير مستساغة لدى القارئ، مما جعل النقاد يعيبون ذلك على الشاعر، فإعادة الضمير في الغالب تكون إلى الأقرب، ولكن الشاعر يلجأ أحياناً إلى أعادته إلى البعيد، مسبباً بذلك لبساً في الفهم واستغلاقاً للمعنى.

ومن يراجع كتب النقد يرى شواهد ذلك بكثرة، لاسيما لدى شعراء من أمثال أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء، ويكفي أن نراجع (الموازنة) للآمدي والوساطة للجرجاني وشروح دواوين الشعراء، لنلاحظ هذا المعنى يتردد في طيات الكتب على السنة والنقاد، وكتاب ابن فورجة لا يخلو من ذلك أيضاً، فهو كثيراً ما يشير إلى قراءات متعددة، مرجعها إلى عود الضمير، فقد جاء في شرحه لقول أبي الطيب:

يَعْلَمَنَّ ذَاكَ وَمَا عَلِمْتُ وَإِنَّمَا

أولاً كما يبكي عليه العاقل

«يريد هذا الأمر الذي حكاه يعني اقفارك أيتها المنازل وخلوك من الأحباب، وأنت لا تعلمين ذلك؛ لأنك لا عقل لك، والهاء في (عليه) تحتل معنيين كلاهما حسن:

أحدهما: أن يعود إلى ذاك، يريد أولاً كما يبكاء على هذه الحال التي ذكرت العاقل (الفؤاد).

الثاني: تعود إلى أولى، يريد أولاً كما يبكاء على نفسه»^(٣٦)

ومن ذلك البيت القائل:

مَنَافِعُهَا مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا

تَغْدَى وَتَرَوَى أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَأَ

قال ابن فورجة عنه: «هذا أحد الأبيات التي زلّ بها الشيخ أبو الفتح أقبح الزلل، قال الشيخ أبو الفتح: أي منافع الأحداث أن تجوع وأن تظمأ، وهذا ضارٌّ لغيرها، ومعنى جوعها وظمئها أن يهلك الناس فتخلو منهم الدنيا، وهذا كقوله:

(٣٦) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٦١.

كالموت ليس له ري ولا شبع ...

فَأَيُّ نَفْعٍ لِلنَّاسِ فِي أَنْ يَهْلِكُوا

وَأَيُّ حِجَّةٍ لَهُ فِي غَفْلَتِهِ عَنْ هَذَا...»^(٣٧).

وكان سبب هذا الوهم عند ابن جني عائداً إلى الضمير، فالهاء- على ما فهمه أبو الفتح- عائدة على الأحداث، بينما أعادها ابن فورجة على الجدة المرثية، وهذا ما يغيّر قراءة البيت، وبهذا يكون المعنى: أن منافع المرثية وإيثارها على نفسها لا يضرّ غيرها، وذلك أنها تؤثّر الجوع والظمأ، في حال الرّي والشبع، فإذا جاعت وظمئت كانت كأنها تغذت ورويت.

وجه آخر، وهو أن تكون (في) بمعنى (مع) يريد: ما ضرّها مع نفع غيرها، كما تقول: أردت شتمك في اكرام زيد، أي مع اكرام زيد،...وبعد فالمعنى من قول القائل:

اقسّم جسمي في جسوم كثيرة

وأحسوا قراح الماء والماء بارد^(٣٨)

فنرى أن تعدد القراءات تعود إلى إرجاع الضمير، وإن كنا نميل إلى ما جاء به ابن فورجة في المعنى الأول؛ لأنه الأبعد عن التكلف والتأويل. ومن الأمثلة الأخرى على ذلك قول أبي الطيب في صباه:

ذَمُّ الزَّمَانِ إِلَيْهِ مِنْ أَحْبَبْتِهِ

مَنْ ذَمُّ مِنْ بَدْرِهِ فِي حَمْدِ أَحْمَدِهِ

فأنك ترى تكرار الضمائر، وليست كلها تعود إلى الزمان، فهناك من يتحدث عنه الشاعر، وهو العاشق كما يذكر أبو الفتح ... «فالهاء في أحبتّه عائدة على العاشق، والهاء في (بدره) و(أحمده) جميعاً عائدة على الزمان، والفاعل المضمّر في ذمّ (الثانية) عائدة على العاشق أيضاً، والبدر هو المعشوق، وأحمد هو المتنبي جعل نفسه أحمد الزمان، أي ليس في الزمان أحمد آخر مثله، فالزمان يذمّ مع الهجر أحبته إياه ويحمده أي ويحمد المتنبي (أحمد)

(٣٧) الفتح على أبي الفتح: ص ٣١٤-٣١٥.

(٣٨) الفتح على أبي الفتح: ص ٣١٥، والبيت في

الحماسة: ج ٢/ ص ٢٨٥، لعروة بن الورد.

لفضله ونجابته»^(٣٩). هذا ما ذكره أبو الفتح، إلا أن ابن فورجة كانت له قراءة أخرى، وهي بإعادة الهاء الى الزمان في قوله: (أحبته)، يريد: أحبه الناس فيه، أضافهم الى الزمان؛ لأنهم فيه. كأنه قال: الزمان له كل الأحبة في مدموم كما قد ذممت بدرك، ثم قال: في حمد أحمد، يريد ذمهم الزمان مع حمده إياي (في) بمعنى (مع) كما تقول: مرّ وهو يقرأ في سيره^(٤٠). وكثرة الضمائر ومرجعياتها يعقد المعنى أمام المتلقي ويصعب ترجيح معنى على آخر.

ويبدو أنّ ما ذكره أبو الفتح أقرب الى الفهم الصحيح للبيت، فالزمان يذمّ اليه أحبة الشاعر؛ لأنهم هجره، وهو يحمد (أحمد) على فضله وشرفه، ومدار الأمر في تفسير المعنى عائد الى نسبة الضمير.

والمعنى ليس بهذا التعقيد الذي يدفع أبا الطيب الى تكرار الإضافات والضمائر وتعقيد الصياغة، بحيث توهم السامع، وإنّما كان بالإمكان التعبير عن هذه الفكرة بأسلوب رشيق. ولعل القافية اقتضت ذلك، ومع ذلك فإنّ المعنى لا يستوجب هذا التعقيد.

ومن الأبيات الأخرى التي ذكرها ابن فورجة وتأولها بقراءات متعددة قول المتنبي:

وأكبرُ منه همّةٌ بعثتُ بهِ

إليك العدى واستنظرته الجحافلُ

في هذا البيت ثلاث قراءات:

الأولى: أن تكون (أكبر) اسم تفضيل وليس فعلاً رباعياً، والهاء راجعة الى نفسه في (منه)، يريد: أكبر من جسمه همّة بعثت به اليك.

الثانية: أن تكون (أكبر) فعلاً رباعياً، أي استعظم العدى همته التي بعثت به اليك، وسألته الجحافل ان ينظرها بما شغل به سيف الدولة عنهم، وهو لأبي الفتح.

الثالث: أن تكون الهاء في منه ضمير (الرسول) في

(٣٩) الفتح على أبي الفتح: ص ١٤٢.

(٤٠) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ١٤٢.

بيت تقدمه:

وأنى اهتدى هذا الرسول بأرضه

وما سكنت مذسرت فيها القساطلُ

يريد: وربّ أكبر من هذا الرسول همّة بعثت اليك الروم، أي جاءك فاستعظم شأنك فعاد اليهم وهو يعذلهم، عداثهم لك، ويجل قدرك في عيونهم أن تعادى.

فأقبل من أصحابه وهو مرسل

وعاد الى أصحابه وهو عاذل^(٤١)

ومن الأبيات الأخرى التي تستغل على السامع والقارئ، لصعوبة ارجاع الضمير وعوده على المتحدث عنه، لوجود شخص آخر في طيات البيت مما يستدعي الوهم قول أبي الطيب:

كلما استلّ ضاحكته إياة

تزعّم الشمسُ أنّها أرادته^(٤٢)

والهاء في أرادته راجعة الى السيف؛ لأن الشمس والإياة كليهما مؤنث.

«والإياة نكرة تحتاج الى ضمير يرجع اليها في باقي الكلام، فإن كانت الهاء راجعة الى إياة، فالهاء في أرادته إما للسيف او للشمس، وإن كانت الهاء في إنها للشمس، فالهاء في أرادته لا تصلح أن ترجع الى إياة؛ لأنها مؤنثة فيها علامة تأنيث... وقد ذكّر الشمس؛ لأنها مؤنث مجازي واضطرت القافية الى ذلك... وهذا وارد في كلام العرب»^(٤٣).

فكأنه أراد: أنه كلما استل هذا السيف وخرج من قرابه، ضاحكته إياة، واستعار الضحك للإياة: ضوء الشمس الساطع، حتى ان الشمس تزعم أنها من أترابه، ولكثرة استتلال السيف فان كل سلة،

(٤١) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٣٠.

(٤٢) الإياة: ضوء الشمس، والريد: التّرب، وجمعه أراد وريدان.

(٤٣) الفتح على أبي الفتح: ص ١٣٧، والبيت في شرح العكبري: ج ٢/ ص ٥٠، وذكر فيه أنه يجوز في أرادته أن يكون جمع (رأد: ضوء)، وقد يكون جمع ريد: التّرب.

ترب له وشبيه له بضوء الشمس، ولذا جاء بالاراد جمعا.

وفي هذا المعنى دقة كبيرة، وصنعة لطيفة، لم يذكرها أبو الفتح ولم يتطرق الى شرحها، وقد تناولها ابن فورجة في كتابه. ومن أبياته المشكلات قوله:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً

لمن بات في نعمائه يتقلب^(٤٤)

فالهاء في نعمائه يمكن أن تعود على المتقلب في نعمائه او الى غيره .

● التقديم والتأخير

من أسباب الصياغات المبهمة التقديم والتأخير، وهذا الديوان يـضرب بنصيب من ذلك، فمن ذلك قول المتنبي:

وأكثر ما تلقى أبا المسك بذلةً

إذا لم تصن إلا الحديد ثياباً

وهذا البيت أورده ابن فورجة وقال عنه: «وقد سها الشيخ أبو الفتح فيه سهواً بيئاً قال إذا تكفرت الأبطال، فلبست الثياب فوق الحديد خشيةً واستظهاراً، فذاك الوقت أشد ما يكون تبديلاً للضرب والطعن... وهذا أيضاً جناية للعجلة، ولو تثبت لم يعزب عنه هذا القدر، وما الحاجة بنا إلى التعسف؟ وإنما يفعل ذلك- لبس الثياب فوق الدروع- من يحتال بحرب من يخشى حربه، إذ كان يكاتمته، أو يهجم به، فهو يخشى ظهور أمرها فيستظهر لحرب من يدفع إذا دوفع...»^(٤٥).

وخلاصه ما رآه ابن فورجة أن المعنى: إذا لم يصن البدن الا الحديد ثياباً، فحذف البدن لعلم المخاطب به، أي في الحال التي لا تصون الإنسان ثيابه عن وخز الرماح، بل يحتاج إلى الحديد، فالحديد نصب على الاستثناء مقدم على الفاعل^(٤٦).

وإن ما ذكره ابن جني- لا يدل على بطولة العدو

وشجاعته، فالشجاعة يلبس ثيابه تحت الدرع لا فوقه- إن لبس الدرع- وإلا فهو محتال مخادع، يتزىي بزي الإبطال الذين يفخرون بتركهم التدرع إذا حمي الوطيس، وتطاييرت الرؤوس، وما أوهم ابن جني في الوقوع في ما ذكره راجع إلى تقدير المحذوف وتقديم المستثنى على فاعله.

ومن الأبيات التي يشتهب المعنى فيها لتقديم أو تأخير؛ البيت الذي يقول فيه أبو الطيب:

أنى يكون أبا البرية آدم

وأبوك والثقلان أنت محمد

والتقدير: كيف يكون أبا البرية آدم، وأبوك محمد وأنت الثقلان، أي أن أباك هو أبو الثقلين وليس غيره، وقد كرر هذا المعنى في شعره فأظهر ذلك^(٤٧) في قوله:

ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق... وهذا كله من الآية:
{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} (النحل: ١٢٠)

قول أبي الطيب:

من كل أحور في أنيابه شنب

خمر مخامرها مسك تخامرهُ

فالهاء في مخامرها عائدة على الخمر، وخمر: مبتدأ، مخامرها: مبتدأ ثان. مسك: خبره، وجملة (مخامرها مسك) في محل رفع خبر لـ(خمر)، والهاء في تخامرهُ ضمير الشنب.

وهذا قول ابن فورجة، وهو أرجح مما ذكره أبو الفتح، فالمعنى: أن خمرًا قد خامرها مسك، يخامر ذلك الشنب، و(الشنب) صفاء ورقة في الأسنان، وإنما جعل أبو الفتح (خمرًا) بدلًا من شنب، أي كأنه قال: في أنياب خمر، على أنه لو أراد الشاعر هذا المعنى لذكر الفعل؛ لأن المسك مذكر، وقال: مسك يخامرهُ^(٤٨).

وهناك رواية أخرى للبيت بالياء في مخامرها أي: خمر يخامرها، وتكون بذلك: خمر مبتدأ ومسك فاعل يخامرها، والجملة نعت وتخامرهُ خبر للمبتدأ خمر. وجملة خمر تخامرهُ نعت لـ(شنب).

(٤٤) الفتح على أبي الفتح: ص ٦٩.

(٤٥) الفتح على أبي الفتح: ص ٨.

(٤٦) الفتح على أبي الفتح: ص ٨٦.

(٤٧) الفتح على أبي الفتح: ص ١١٣.

(٤٨) شرح العكبري: ج ٢/ ص ١١٦.

ولعل هذا التداخل بين أطراف الكلم في الشطر الثاني من البيت هو ما دفع الشارحين الى التمثل والتعسف في التأويل وتعدد القراءة فيه، فضلاً عن التقديم والتأخير الذي حصل في البيت. فكأنه لو أسعفه الوزن لقال: في أنيابه شنب لزمته وخالطته خمرة ممزوجة بالمسك، وليس ما عابه ابن فورجة على ابن جنبي في أنه فسّر المخامرة بالمخالطة بصحيح، فقد ذكر صاحب المفردات: خامره وخمره: خالطه ولزمه^(٤٩). ومثله في القاموس المحيط: تخامر العقل أي تخالطه... والمخامرة: لزوم المكان، والمخالطة والمقاربة والاستتار^(٥٠).

ومن الابيات الاخرى في هذا الباب قوله:

كفي أراني ويك لومك ألوما

هم أقام على فؤاد أنجما

فقد فسره ابن جنبي بمعنى: أراني هذا الهم لومك إياي أحق بأن يلام مني، وهذا من باب التصريف واللغة^(٥١). وذكر ابن فورجة معنى آخر وهو: كفي لومك أراني أشد لوما، أي أرى نفسي أقدر على اللوم منك، (هم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (حالي)، أي حالي هم أقام على فؤاد أنجم أو مبتدأ وخبره محذوف^(٥٢).

● تعدد القراءات بسبب الصياغات الملتبسة

قد تتعدد القراءات للبيت الواحد بسبب الصياغات الملتبسة، من دون أن يكون في البيت حذف أو تقديم أو تأخير أو ضمائر توهم القارئ بصعوبة إرجاعها إلى الأقرب أو الأبعد، وقد امتلأ كتاب (الفتح على أبي الفتح) بهذه القراءات المتعددة وسنذكر بعض الأمثلة عليها:

فمن ذلك ما ذكره ابن فورجة في تفسيره للبيت:

العارفين بها كما عرفتُهُم

والراكبين جدودهم أماتها

(٤٩) المفردات في غريب القرآن: خمر ص ١٥٩

(٥٠) القاموس المحيط: ص ٣٦٢.

(٥١) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٢٩٨.

(٥٢) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٩٨.

فالبيت واضح من حيث الألفاظ، لا يحتوي على تقديم أو تأخير أو حذف مما يوجب غموضاً، غير أنه يحتمل معنيين بسبب صياغته الملتبسة:

«أحدهما، وهو الظاهر، أن هذه الخيل تعرفهم وهم يعرفونها؛ لأنها من نتائجهم، وعنى أنها تناسلت عندهم، فجدود هؤلاء المدوحين كانت تركب أمهات هذه الخيل، وهم اليوم يركبون بناتها، ولو ساعده الوزن لقال: والراكبين أباؤهم ليكون أصح في التقابل وهذا المعنى سواء...

والثاني: هو الذي أورده يصف معرفتهم بالخيل ولا يعرفها إلا من طال مراسه لها، والخيل تعرفهم أيضاً؛ لأنهم فرسان... وأن جدودهم أيضاً كانوا من ركاب لخير، أي أنهم عريقون في الفروسية... وهذا هو الأشبه والمعنى الأول غير ممتنع^(٥٣).

ونحن نوافق ابن فورجة في معناه؛ لأنه ألصق بمعنى المدح والفروسية الذي قصده الشاعر، وأما الأول، فهو لا يرقى إلى المعنى الثاني وإن كان غير ممتنع كما يرى.

ومن الأبيات الأخرى قول المتنبي:

يدق على الأفكار ما أنت فاعل

فيترك ما يخفى ويأخذ ما بدا

فقال عنه أبو الفتح: هذا البيت مثل قول عمار الكلبي:

ما كل قولي مشروحاً لكم فخذوا

ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا

وقد عاب هذا المعنى ابن فورجة وقال عنه: «فأما أن يقال هذا مثل هذا ويختم الكلام فتقشير بين... والمعنى... أن تبتدعه من المكارم يخفى على أفكار الشعراء، فيذكرون في أشعارهم ما يظهر منها، ويتركون ما يخفى على أفكارهم، وليس يريد أن المقتدين بك في المكارم يأخذون ما ظهر منها ويتركون ما خفي؛ لأنه لو أراد ذلك لما أتى بالأفكار، ولقال: يدق على الكرام، ولو أراد ذلك لما قال: يترك ما يخفى ويأخذ ما بدا، وكان الأبلغ في المدح أن

(٥٣) الفتح على أبي الفتح: ص ٩٢-٩٤.

يقول: إذا فعلت فعلا لم يهتد إلى فعل مثله أحد فلم يتأت عليه، كما قال في مكان آخر:
تكبوا وراعي يا بن أحمد قرَّح

ليست قوائمهِنَّ من آياتها

وأما قول عمار فيعني: أنَّ قولي أدقُّ من أن يفهموا جميعه، فخذوا ما عرفتم، ودعوا ما لم تعرفوا، فنقله إلى المدح أبو الطيب، وأقام دقة صنعه في اقتناء المكارم دقة معنى الأبيات^(٥٤). ولعل ما ذكره هو الأشبه بالمعنى خاصة مع عرض الحجج والأدلة على ترجيح هذه القراءة. ومنه أيضا قول المتنبي.

ومن الأبيات التي تعددت قراءتها البيت:

إليك ابن يحيى بن الوليد تجاوزت

بي البيدُ عنسُ لحمها والدمُ الشعر

ينفي ابن فورجة أن يكون البيت مروياً بفتح الشين، وقال عنه: «ولم يرو ذلك أحد عن أبي الطيب، وما هو الا من وساوس الشيطان...» ويحتمل من المعاني وجوها كثيرة كلها جيد، فأولها وهو الذي أتى به أبو الفتح، أني إنما كنت أحتها بمدحكم وأحدو لها به، فأصون بذلك لحمها ودمها، هذا لفظه... ومعنى ثان، وهو أن يعني أنه لا حول ولا مال ولا وسيلة إلا الشعر... فأقام اللحم والدم والمال والوسيلة؛ لأنَّ الإنسان بهما يتوسل إلى السير، ويكون كقوله:

لا ناقتي تقبلُ الرديفَ ولا

بالسوطِ يومَ الرهانِ أجهدها

ومعنى ثالث: أنه يعني ناقته لم يبق لها من هزالها دم ولا لحم وإنما الشعر فقط.

ومعنى رابع: وهو أجودها كلها، وهو أنه يعني أنها كأنها شعر قد تجسم ناقة فكلها شعر، إذ كان كلها لحما ودمًا، فانه لو قدر لقال: لحمها ودمها وعظمها وعصبها وما أشبه ذلك، ولا يريد أن ثمَّ هزالا ولا جهدا، بل يريد غلبة الشعر على راکبها^(٥٥). وقد نسب العكبري رواية فتح الشين

في (الشعر) الى الخوارزمي^(٥٦). والأجود هو المعنى الأخير الذي أشار اليه ابن فورجة، وفيه من الخيال والمبالغة الشيء الكثير، وهو ما عرف عن أبي الطيب، وفي موضع آخر يقول:
هم الناس إلا أنهم من مكارم...^(٥٧)
فغلبة المكارم على الناس (المدوحين) جعلت المكارم تغمرهم، بل جعلتهم كيانا من المكارم فقط. وكثيراً ما يجعل المجاز حقيقة والحقيقة مجازا كما في بعض أبياته، إذ جعل حقيقة الملوك أرناب واستعار لهم الملوك كقوله:
أرنابٌ غير أنهم ملوكٌ

مفتحةٌ عيونهم نيامٌ

ومما تعددت فيه القراءات قوله:

ولا أقمنا على مكانٍ وإن طابَ

ولا يمكنُ المكانَ الرحيلُ

قال عنه أبو الفتح: معناه لم نقم كقوله تعالى:
{فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى} (القيامة: ٣١)

يريد: لم يصل، فهي نافية بمعنى (لم)، وذكر ابن فورجة أن الـ(لا) هنا هي الواقعة في جواب القسم كقوله: والله لا أقمت. «فيحتمل أن يريد: والله أقمنا على مكان، ويحتمل أن يريد الدعاء: لا أقمنا على مكان هذه صنعة...»

وقوله: **ولا يمكنُ المكانَ الرحيل...** له معنى لطيف سها عنه الشيخ وأتى مكانه بمعنى كسيف وهو: أنه يريد لا نقيم على مكان أبدا حتى نلقاه، يقول: لا أقمنا على مكان إلا ويمكن الرحيل معنا، وهذا ما لا يكون، فكذلك نحن لا نقيم، فالواو هنا واو الحال أي لا نقيم في مكان وهذا حاله... فانظر الفضل بين ما ذكرنا، وبين ما فسره أبو الفتح^(٥٨).

ومن جميل الصنعة قول أبي الطيب:

قفي تغرمي الأولى من اللحظ مهجتي

بثانيه والمتلف الشيء غارمه

أي «قفي فإن الأولى من النظرات أتلفت مهجتي،

(٥٦) شرح العكبري: ج ٢/ص ١٢٤.

(٥٧) الفتح على أبي الفتح: ص ١٤٧.

(٥٨) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٥٤) الفتح على أبي الفتح: ص ١٠٦-١٠٧.

(٥٥) الفتح على أبي الفتح: ص ١٤٦.

فإن وقفت غرمتها ثانية... وذلك أن اللحظة الأولى لا تغرم، وإنما حبيبته تغرم، أو النظرة تغرم... لكنه توسع في الكلام على مذهب العرب، إذ كانت النظرة الأولى هي التي أتلقت فكأنها تلك بعينها تعاد فتغرم... ومعنى آخر... و(الأولى) نصب تكون مفعولاً أولاً، و(مهجتي) مفعول ثانٍ لـ(تغرمي)... أي لما كانت النظرة الأولى أتلقت مهجته قال: أغرميها لها بنظرة ثانية، وكلا التأويلين جيد»^(٥٩). والمعنى الثاني أجود وأدق، فكأنه عاشق يهوى ما يتلف مهجته فيريد منها ما يستزيد به المأ وكمدًا، فكأنه نظر إلى قول القائل:

وداوني بالتي كانت هي الداء^(٦٠)

ومن المعاني التي تعسّف فيها أبو الطيب:

نحن من ضايق الزمان له فيـ

ك وخانته قريبك الأيام

يبرئ ابن فورجة أبا الفتح من القراءة التعسفية للنص في هذا البيت ويلقي باللوم على المتنبي، وهو مع ذلك يقدّم قراءة مغايرة لقراءة ابن جني للنص قائلاً: «فقال أبو الفتح: قال أبو الطيب: أردت ضايقه فزدت اللام، وهذا مثل قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ} (يوسف: ٤٣)، ... وعندي له وجه آخر، وهو أن تكون الهاء عائدة على الزمان، يريد نحن من ضايق الزمان لنفسه فيك. أي لأجل نفسه، وكلا الوجهين من باب التعسف والذنب لأبي الطيب لا للمفسر»^(٦١).

والمعنى - كما يذكر الواحدي - معروف قد تعاورته الشعراء، قال محمد بن وهب:

وحاربني فيك ريبُ الزمانِ

كأنَّ الزمانَ له عاشقٌ^(٦٢)

وهذا الأسلوب النقدي يكشف عن مدى موضوعية

(٥٩) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٦٠) الشعر والشعراء: ج ٢/ص ٧٤.

(٦١) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٨١.

(٦٢) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٨١-٢٨٢، نقلًا عن شرح

الواحدي والاغاني: ج ١٧/ص ٢٨١.

ابن فورجة وأدبه العالي في النقد، فضلاً عن ذاتقته النقدية الماهرة في اصطلياد المعاني الملعّزة والمبهمة. ومن أبياته التي تتعدد فيها القراءات قوله:

وفأوكما كالربع أشجاه طاسمِه

بأن تسعدا والدهرُ أشفاهُ ساجمِه

يشير ابن فورجة إلى تأويل البيت قائلاً: «يريد: وفأوكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه... وفأوكما بذلك طاسم دارس، وأشجاه دارسه؛ لأنه لو لم يكن دارساً ما شجاني... ثم تم الكلام أتى بزيادة... أشفى لدفع ما يسجم فدعوني ابكي... وقد يكون المعنى: وفأوكما كالربع، مقطع كلام أي دارس كالربع. ثم قال: الذي أشجاه، من قولك شجي باللقمة إذا غص، وأن تسعدا متصل بأشجاه، يريد أعصه بإسعاد كما لي فيه على البكاء»^(٦٣).

● أبيات مشكلات

بين ابن فورجة ونقاد المتنبي

تضمّن كتاب (الفتح على أبي الفتح) - فضلاً عن كونه ردّاً على ابن جني - ردوداً على مجموعة ممن تصدّوا لشعر أبي الطيب، ومنهم: القاضي الجرجاني صاحب (الوساطة)، والصاحب بن عباد الذي ألّف رسالة في الكشف عن مساوئ المتنبي، والحاتمي الذي ألّف رسالة في سرقات المتنبي فيما أخذه من معان عن أرسطو طاليس سنحاول أن نفرّد لكل من هؤلاء مع نماذج موجزة لآراء ابن فورجة في ما ذكره.

● القاضي الجرجاني (ت ٣٦٢هـ)

وهو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٢هـ) وكان على ما ذكره صاحب اليتيمة: «قد ألّف كتاب الوساطة بعد أن وضع الصاحب بن عباد رسالته في إظهار مساوئ المتنبي»^(٦٤). وهكذا يبرز هذا الكتاب ليكون في عنوانه الذي اختاره له مؤلفه حكماً وسطاً و(قاضياً) بين المعجبين بشعر أبي الطيب

(٦٣) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٦٤) يتيمة الدهر: ج ٤/ص ٤.

والطاعنين عليه، وقد دفعه إلى تأليف هذا الكتاب ما رآه من تعصب الفريقين وابتعادهما عن الصواب، وكلا الفريقين كما يقول الجرجاني: «أمّا ظالم له أو للآدب»^(٦٥)، فكان لابد أن يعدل في حكمه؛ لأنه قاضٍ، وينتهي في كتابه إلى أن مجموع شعر الشاعر لا يخرج عن إطاره الجميل الرائع النادر، غير أنه وقف أمام قضية السرقات (لدى المتنبي) وقفه طويلة.

والذي يهمننا هنا هو موقف ابن فورجة من آراء الجرجاني في سرقات المتنبي، وما عابه على أبي الطيب من المعاني، وكان ابن فورجة قد ذكره في سبعة مواضع في كتابه^(٦٦)، لم يعذره في أحكامه؛ لأنه كان عالماً بالشعر، غائصاً في دقيق المعاني، وكونه في الذروة من النقد، مع حفظه لمقام الجرجاني، فيقول في شرحه لقول المتنبي:

ذكرت به وصلًا كأن لم أفرّ به

وعيشًا كأنني كنت أقطعُه وثبا

«وقد وقع في هذا البيت سهو على القاضي... فادعى أنه أخذه من الهذلي حيث قال:

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها

فلما أنقض ما بيننا سكن الدهر^(٦٧)

قال: فأخذه منه فجعل أبو الطيب وثبا. وقد ملّح في اللفظ، هذا قول القاضي (رحمه الله) وهو عجبٌ منه، مع علمه بالشعر وغوصه في المعاني الدقيقة... وإذا زلّ أبو الفتح في معنى بيت عذرناه؛ لكونه عن صناعة الشعر بمعزل، إما القاضي فلا عذر له، وإنما جناية العجلة وحاشا لله أن ادّعي الفضل على تلاميذهما، فكيف عليهما؟»^(٦٨).

(٦٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ص ٤.

(٦٦) الفتح على أبي الفتح: المواضع هي: ص ٧٩، ٨٣، ٨٧، ٩٦، ١٣٣، ١٤٩، ٣٢٠.

(٦٧) البيت في حماسة أبي تمام: ج ٢/ص ٦١ ونسبه إلى أبي صخر الهذلي.

(٦٨) الفتح على أبي الفتح: ص ٧٩-٨٠.

أما بيت المتنبي فهو يريد قصر زمان الوصل، فكأنه لم يكن، أو كأنه وثب، فكل زيارة للحبيب وثبة وكل ساعة وثبة، وأما قول الهذلي فمعناه، لم يزل الدهر يسعى إليها، وبالمكروه بيننا، فلما أنقض ما بيننا بالفراق سكن الدهر عن السعاية^(٦٩). ومما عابه على القاضي أيضا، تفسيره لبيت أبي الطيب:

مَنْ أَقْتَضَى بسوى الهندي حاجته

أجاب كل سؤال عن هل بلم

فقال بعد أن نقل كلام ابن جني: «إلا أن القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (رحمه الله) فسّره في كتابه (الوساطة)، فأخطأ ثم عابه، فقال: كان الواجب أن يقول عن هل بـ(لا)؛ لأنه يقول: هل تبرع لي بهذا المال؟ فتقول: (لا) فأقام (لم) مقام (لا)؛ لأنّهما حرفان للنفي، فأقام أحدهما مقام الآخر.

وفي هذا من الظلم ما ترى، ومن الخطأ ما تعلم؛ لأنه لو أراد لقال: أجبت عن كل سؤال بـ(لا)؛ لأنه المقتضى فيجاب لا هو- يجيب- ويعني كل من اقتضى حاجة بغير السيف، ثم سأله الناس: هل أدركت حاجتك... فيقول: لم أبلغ»^(٧٠).

وهناك العديد من المواضع التي تصيّدُها ابن فورجة على القاضي الجرجاني، فيما أخطأ به في شرحه لأبيات أبي الطيب، أو فيما نسبته إليه من سرقات.

● الصاحب بن عباد (٣٨٥هـ)

هو كافي الكفاة إسماعيل المولود عام (٣٢٦هـ) تلميذ ابن فارس وابن العميد استوزر للبويعيين، توفي عام (٣٨٥هـ) ودفن بأصبهان، ورثاه الشريف الرضي^(٧١).

وكان ابن فورجة قد تناول الصاحب في سبعة مواضع بالنقد^(٧٢)، ووصفه بـ(الظالم) فيقول

(٦٩) ينظر: الفتح على أبي الفتح: ص ٧٩-٨٠.

(٧٠) الفتح على أبي الفتح: ص ٣٢١.

(٧١) الكنى والألقاب: ص ٣٦٥.

(٧٢) الفتح على أبي الفتح: المواضع هي: ص ٧١، ٧٦، ١٠٠، ١٦٣، ١٩٧، ٢٥٤، ٣٣٥.

عنه: «وما شهدت أحدا من الفضلاء، وذوي العقلاء يذمه غير هذا (الظالم)»^(٧٣)، ويذكر الثعالبي في اليتيمة أن: «الصاحب طمع في زيارة المتنبّي في أصبهان... وهو إذ ذاك شاب، وحاله طويلة، ولم يكن استوزر بعد، وكتب إليه يلاطفه في استدعائه وتضمن له - مشاطرة جميع ماله، فلم يقم له المتنبّي وزنا، ولم يجبه عن كتابه، ولا إلى مراده، فاتخذ الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقية، ويتتبع عليه سقطاته في الشعر»^(٧٤).

يقول ابن فورجة عن رسالة الصاحب في مساوئ المتنبّي: «قد ارتكب فيها شيئاً من المرح عجباً ليس من طريقه العلم، ولعمري أنه لو لم يرو عنه هذا الكتاب لكان أجمل بمثله، إذ لم يتعد فيه غير الهزء الفارغ والكلام اللغو... وهذه الرسالة عملها في صباحه، والنزق حداً على إظهارها، وما أجدر مريد الخير له بكتمانها عليه»^(٧٥).

وكان مما عابه الصاحب على أبي الطيب قوله:

لا يُحزنُ اللهَ الأميرَ فإنني

لأخذُ من حالاته بنصيب

«قال الصاحب: ولا ندري لم لا يحزن الله الأمير سيف الدولة إذا اخذ بنصيب من القلق، أترى هذه التسلية أحسن عند أمته أم قول أوس:

أيتها النفسُ اجملِي جزعاً

إن الذي تحذرين قد وقعا

فقال ابن فورجة: أخطأ في موضعين:

أحدهما: أنه ظن أنه يقول: كلما حزن الأمير جزعت فقط، أي بالأخبار والمقصود الدعاء والثاني: أنه قال: أترى هذه التسلية أحسن أم قول أوس؟ وأن هذا البيت ليس تسلية، وإنما هو دعاء للممدوح»^(٧٦).

ومما عابه الصاحب على أبي الطيب في مطلعته،

ورذالة البديع قوله:

في الخدّ إن عزم الخليطُ رحيلاً

مطرٌ يزيدُ به الخدودَ محولاً

فقال الصاحب: «ومن استرساله إلى الاستعارة التي لا يرضاها عاقل، ولا يلتفت إليها فاضل، ثم هذا الابتداء في القصيدة من النفور بحيث تضيق عنه الصدور»^(٧٧)، فيرد ابن فورجة قائلاً: «فأي علم أفادنا بما قال غير هذا الكلام المسجوع الذي ماله مرجوع، بل ليت شعري أي شيء أنكر؟ وما الذي نقم؟ والمحول للخدود مستعار، كما أن المطر للدمع مستعار، فأبي نفور في هذا الابتداء الذي لم يخله من لفظ رائع؟ وأي معنى مبتدع وصنعة محكمة؟ وبعد فقد ارتضى كل ذي عقل وفضل رأيته وسمعت به هذا الابتداء واستحسنته، وما شاهدت أحداً من الفضلاء وذوي العقول يذمه غير هذا الظالم»^(٧٨).

● الحاتمي (ت ٣٨٨هـ)

هو أبو علي محمد بن المظفر الكاتب اللغوي صاحب الرسالة (الحاتمية)، توفي عام ٣٨٨هـ^(٧٩)، شرح فيها ما جرى بينه وبين أبي الطيب من إظهار سرقاته وعيوبه، وما أخذه أبو الطيب من معاني (أرسطو طاليس)، وقد جاء ابن فورجة على ذكره في موضعين:

الأول: في تفسيره لقول أبي الطيب:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً

لمن بات في نعمائه يتقلّب

حيث ذكر الحاتمي أن هذا مما أخذه أبو الطيب من قول أرسطو طاليس: «أقبح الظلم حسدك لعبدك الذي تنعم عليه»، فتوهم أن الهاء تعود إلى (من بات)، وهي عائدة إلى الممدوح، أي «أن إنعامه فائض على كل أحد، فأظلم الناس من يحسد من نال من خيره، إذ كان خيره مبدولاً لكل واحد، فلم يبق للحسد وجه، إذ كان بقدر أن ينال مثله كل واحد»^(٨٠).

(٧٧) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٥٥.

(٧٨) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٥٥.

(٧٩) الكنى والألقاب: ص ٢٦٥.

(٨٠) الفتح على أبي الفتح: ص ٦٩.

(٧٣) الفتح على أبي الفتح: ص ٢٥٥.

(٧٤) يتيمة الدهر: ج ٤/ص ١٥.

(٧٥) الفتح على أبي الفتح: ص ٧١-٧٢.

(٧٦) الفتح على أبي الفتح: ص ٧٢.

والآخر في تفسير قول أبي الطيب:

إذا استقبلت نفس الكريم مُصابها

بخبثٍ ثنت فاستدبرته بطيبٍ

وللواجدِ المكروبِ من زفرائه

سكونٌ عزاءٍ أو سكونٌ لغوبٍ

حيث قال الحاتمي: «أخذه من قول أرسطو طاليس: (من علم أن الكون والفساد يتعاقبان الإنسان لم يحزن لورود الفجائع)، إلا أن قوله ليس تسليةً وهدايةً إلى طريق العقل، وقول أبي الطيب يريد به أن الكريم، مراجع لعقله، صبورٌ عن عزائه، مغتفرٌ للعظام، وهذا معنى مطروق كثيراً لا يفتقر فيه إلى أحد، وفي البيت الذي يليه تبيان لما أراد»^(٨١).

ولم أخصص لأبي الفتح مكاناً هنا؛ لأن كتاب ابن فورجة كلّه ما هو إلا ردٌّ على ابن جني في تفسيره، فليس في ذلك مدعاة لذكر أو التعريف به؛ لأنّه أشهر من أن يعرف.

● الخاتمة:

بعد هذه الجولة السريعة في شعر أبي الطيب وحكمته الباهرة، لابد للباحث أن يضع رحله في نهاية المطاف، ويضع النقاط على الحروف؛ ليشير إلى أهم النتائج التي وصل إليها والتي لا تخفى على القارئ، غير أننا ندرجها بشكل نقاط:

● قراءة ابن فورجة لديوان أبي الطيب وسماعه لروايته عن عدد من العلماء والرواة، مكنته من الإحاطة به، وترجيح الرواية الصحيحة للبيت فضلاً عن الانتباه إلى أمور في شعر أبي الطيب غابت عن سواه، كما أن دقته في تحري المعنى الباطني والقراءات المتعددة، تدل على علو كعبه في النقد.

● يمكن أن نعدّ ابن فورجة – بالنظر إلى آرائه المتناثرة في طيات كتابه – من النقاد المحافظين،

(٨١) الفتح على أبي الفتح: ص ٧٧-٧٨.

غير أنّه أقل تشدداً من الأمدي وأقرانه.

● لم يكن ابن فورجة يثق برواية ابن جني، مع ثنائه عليه في بعض المواضع، ومع ذلك فهو ملتزم بأدب النقد الموضوعي، عفاً للقلم باستثناء ما وصف به (الصاحب بن عباد) بالظالم، ولعل ذلك بسبب تحامل الأخير على المتنبي والنيل منه.

● لاحظنا أثناء هذه الدراسة بعض الأحكام الغريبة من الناقد، أشرنا إليها في موضعها، ونرجح أن مردّها إلى إعجاب المصنف بشعر المتنبي وبعض أبياته التي (قصر) فيها.

● الأثر الفلسفي والصوفي يظهر بشكل واضح في شعر المتنبي، وفي المقابل فهو ينحى فيه منحى الفلاسفة والمناطق.

● الاستعارة عند أبي الطيب باب واسع من أبواب التعقيد والغموض وهي تخالف المعجم الاستعاري العربي التقليدي.

● الثقافة الواسعة للشاعر تحيل القارئ أحياناً إلى مرجعيات تراثية أو اجتماعية وهي تشكل سبباً من أسباب الغموض.

● التركيب المعقد مورد من موارد الغموض، فكلمات البيت واضحة وألفاظه سهلة، ولكن التركيب معقد، وهو ما نلاحظه في كتابات المتصوفة، ولعل الشاعر قد تأثر بهم في بعض أشعاره. وهناك أبواب أخرى للتعقيد كالقديم والتأخير والتكرار وغيرها أشرنا إليها في موضعها.

● المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر) من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: د. إحسان عباس، ط ١، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٩٧١ م.

- ديوان أبي الطيب شرح أبي البقاء العكبري المسمى التبيان في شرح الديوان، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين ط ٢: الحلبي.

- ديوان الحماسة: لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (٥٢٣١هـ) تحقيق: د. عبد المنعم أحمد صالح، منشورات

-الكنى والالقباب: عباس القمي (١٣٥٩هـ) مؤسسة النشر الإسلامي قم إيران، ط١٤٢٥هـ، ١٠١٤٢٥هـ.
-المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت ط١.
-الموازنة بين أبي تمام والبحتري: لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي (٣٧٠هـ) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية- لبنان، ٢٠٠٦م.
-الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي الجرجاني (٣٦٢هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي، دار أحياء الكتب العربية ط١.
-يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر: لأبي منصور الثعالبي (٤١٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

وزارة الثقافة والأعلام، ١٩٨٠م.
-الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: احمد صقر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
-الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي: أبو الفتح عثمان ابن جني (٣٩٢هـ) تحقيق محسن غياض، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
-الفتح على أبي الفتح: محمد بن محمد بن فورجة تحقيق: عبد الكريم الدجيلي، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ط: الجمهورية العراقية، ١٩٧٤م.
-القاموس المحيط: مجد الدين الفيروز آبادي دار الأحياء للتراث العربي، ط٢، ٢٠٠٣م.